مرثية مطران لحافظ

عظَّمَ اللهُ فيك أَجْرَ الضادِ ... وبنيها من حاضرٍ أو بادِ
راعَ آفاقَها نَعيُّكَ حتى ... لكأنَّ النَّعِيَّ بُوقُ التَّنادى
كلُّ قطرٍ فيه فتىً عربيٌّ ... فيهِ عينٌ شكرَى وقلبٌ صادِ
حَدَثٌ ألْهَبَ الصدورَ التياعاً ... حيث دوَّى وفتَّ فى الاعضادِ
من سماءِ الاهرامِ جَلَّ قيْسُو ... نَ وألْقَى السَّوَادَ فوق السَّوادِ
وعلى بهجةِ المرابعِ فى لُبْـ ... ـنانَ أرْسَى سحابةً مِنْ حِدَادِ
ليس بدْعاً أن يُمْسِيَ الشامُ والاحز ... انُ فيهِ تُقضُّ كلَّ وسادِ
ما تراهُ يقضى الصديق الذى ... بادَ بالفضل من حقوق الودادِ

* * *

كيف حالُ الاخوانِ فى مصر يا حا ... فظُ مِن وحشةٍ لهذا البِعادِ ؟
أين زَينُ النَّدِيِّ منهم — وهُم فى الظرْفِ ما هُم — وأين أُنْسُ النادى؟
كلُّ حَفْلٍ شهدتهُ كنتَ فيه ... قِبْلةَ السامعين والأُشهادِ
يأخذون الحديثَ عنك كما يَشتفُّ مَنْ يرتوى مِن الوُرَّادِ
فإذا ما تنادروا وتنادر ... تَ فأعجبْ بوَرْيِ تلك الزِّنادِ
فطِنٌ تشرح الصدورَ وما تؤ ... ذى دُعاباتُها سوى الانكادِ
ربما كانت العظاتُ الغوالى ... فى شظايا ابتسامها الوقَّادِ

* * *

كيف حالى وأنت ادرى بما خلَّفتَ لى من فجيعةٍ وسهادِ ؟
أسعدى ياهواتفَ الأيْكِ نَوْحى ... أنا فى حاجةٍ الى الإسعادِ
أبتغى البثَّ والشجا غضَّ مِن صو ... تى وحَرَّ الاسى أجفَّ مِدادى

* * *

ويحَ أُمِّ اللغات مما دهاها ... فى طريفِ الفخار بعد التِّلادِ
ذاقت الثُّكْلَ فى بُنوَّتها الا ... مجـــادِ بعد الأبوَّةِ الامجادِ

فى رفاقٍ ردّوا على كلّ أصلٍ من عُلاها نضارةَ الاعوادِ
نَضَّرَ الله عهدَهم وسقاهم ما سقى الاولين صَوبُ العِهادِ

* * *

نخبةٌ قلّما أُتيحَ لعصرٍ مثل مجموعهم من الافرادِ
أيقظوها من الرقاد وقد جا زَ مَداهُ أقصى مدَى للرقادِ
وأعادوا جمالها فى زُهاه يتراءى قديمُهُ فى المعادِ
أين سامٍ وأين صبرى وحفنى ورفاقٌ جاروهمُ فى الهَوادى ؟
لحقَ اليومَ حافظ بالمجلين وما كان آخراً فى الطّرادِ
شاعرٌ لم يُبَارِهِ أحدٌ فى الأ خذِ بالمستحبِّ والمستجادِ
يُحْكِمُ الصَّوْغَ فى القِلادِ فما يأ تى صَناعٌ بمثلها فى القلادِ
ناثرٌ تنفث اليراعةُ منهُ نَشْوة الخمر فى مجاجِ شِهادِ
لم يَكَدْ فى مصايد اللؤلؤ الفا خرِ يُبقى فريدةً لاصطيادِ
فى تراكيبهِ وفى مفردات اللف ظِ حارت نفاسةُ الحُسّادِ
كان فى سَمْعهِ رقيبٌ عليه يَقِظٌ من جَهابذِ النُّقّادِ
يقع الزّيْنُ منه فى موقع الزّيـ ـنِ ويَنبو بالشّين نَبوَ سَدَادِ
فالمعانى تتيهُ بين المعانى بسنىِّ الحُلِىِّ والأبرادِ
والمبانى تعزُّ بين المبانى بمتين الاسبابِ والاوتادِ

* * *

عَدٌّ عن وصفك الأديبَ وقلْ ما شئتَ فى الفاضل الوفىِّ الجوادِ
مَنْ يعزّى عنه المروءةَ أمستْ وبنوها الابرارُ غيرَ عدادِ ؟
شيمةٌ لا يطيق كلفتها غيـ ـرُ أولى العزمِ والحجاةِ الجعاد
مَنْ يعزّى عنهُ الوفاء وقد كا ن يرى نقضَهُ من الإلحادِ ؟
خُلُقٌ ليس فى الضعافِ ومايحـ ـلُ أعباءَهُ سوى الأجلادِ

لم يساوِمْ بهِ فينعمَ بالاً ... لا ، ولم يَرْعَ فيهِ جانبَ آدِ
مَنْ يعزّى عنهُ الصراحةَ ؟ كا ... ن الغُرْمُ فيها والغُنْمُ فى الاعمادِ
لم يَسَعْهُ وفى الضميرِ خلافٌ ... أن يرى الاعتدالَ فى المناآدِ
ما فتوحُ الآراءِ والجبن يطوى ... بها كطَىِّ النصالِ فى الأغمادِ
من يعزّى القصّادَ — علماً توخوا ... أو نوالاً — عن مُسعف القُصّادِ
ذي الايادى من كل لونٍ ، واغلا ... هن فى المأثرات بيضُ الايادي ؟

* * *

مَنْ يعزّى كنانةَ اللهِ عن را ... مى عِداها بسهمهِ المصرادِ ؟
عن فتاها الشاكى السلاحين والماضيهما فى شواكلِ الاضدادِ ؟

* * *

انما حافظٌ فتاها ومنها ... وبها فخرهُ على الأندادِ
نشّأتْهُ وأيّدَتْهُ بروحٍ ... عبقريٍّ من رُوحها مستفادِ
بعد أن كان حاكياً وهو يشدو ... جعلَتْهُ المحْكِىَّ بين الشوادى

* * *

نظمَ الشعرَ فى الصِّبى نظمَ واعٍ ... لقِنٍ ناشىءٍ على استعدادِ
بادىء صوغه وفيه فنونٌ ... بارعاتٌ لا يتّسِقْنَ لبادى
ما تعاصَى عليهِ عن عفوِ طبعٍ ... رُدَّ طوعاً لهُ بفضل اجتهادِ

* * *

غير أن القريضَ لم يكُ فى مضطربِ العيشِ مغْنياً من زادِ
أوجب الرزقُ فانتأى حافظٌ يكْدَحُ فى بيئةٍ من الأجنادِ
موحشا فى مجاهل النّوبِ والسودانِ بين الأغوارِ والأنجادِ
تقتضَى أيامُهُ فى ارتياضٍ ... وعلى أهبةٍ لغيرِ جلادِ
ولياليهِ فى الخِيَام ليالى ... وَسِنٍ رازحٍ من الإجهادِ

فى الصميمِ الصميمِ من نفسه الحرَّ ةِ همٌّ مُراوحٌ ومُغادِى
أىّ جيشٍ يدرّبون لمصرٍ وولاةُ التدريب فيه الاعادِى ؟!
ولِمَنْ تملأُ الفضاءَ وعيداً عُدَدٌ من حديدهِ الرعّادِ ؟!
ذاك ما ظلّ فيهِ حيناً وحَسْبُ النفس شغلاً بهِ عن الإغرادِ
غيرَ بَثٍّ يبثُّهُ إن أتاهُ طائفٌ من خيالهِ المعتادِ

* * *

للمقادير فى شئون الجماعات تصاريفُ رائحاتٌ غَوادِ
فُتِنَ الجيشُ والبواعث كُثْرٌ فتنةً لم تكن بذاتِ امتدادِ
فاستطار السُّوَّاس واضطربتْ أحـــلامُ زُرْقِ العيون فى القوّادِ
رابهم حافظٌ فعُوقِبَ فى جملـــة مَنْ عاقبوه بالإبعادِ
أخذوهُ بالظنِّ من غير تحقيـــقٍ وما آخذوا على افنادِ
فتولَّى ، وما لمؤتنفِ العيش بعينيه من ضياءٍ هادى
والجديدان يضربان عليهِ كلَّ رَحْبٍ فى مصر بالأسدادِ
موغرا صدرُهُ لِما سِيم فى غيرِ جُناحٍ من جَفْوَةٍ واضطهادِ
عاطل الثوب من كواكبه الزُّهْرِ ومن سيفهِ الطويلِ النجادِ
فهو فى مصر والبجادُ من الرقّة فى الحال غير ذاك البجادِ
لَقِىَ البؤسَ ، والاديبُ من البؤس قديماً فيها على ميعادِ
حائراً فى مذاهب الكَسْب لا يفرقُ بين الإصدار والايرادِ
عائفاً خطةَ الجُداة وفيه طَبْعُ حُرٍّ يجودلا طَبْعُ جادِى
ولقد زادهُ شَجى أنَّ سُوقَ العلم كانت فى مصر سوقَ كسادِ
وسجايا الرجال رانت عليها لوثةٌ من قديم الاستعبادِ
فهمُ وادعونَ لاهُونَ بالزينـاتِ والتُّرّهاتِ والأعيادِ
عِبَرٌ مرَّ فى جوانحه ما لاحَ منها مرَّ النّصال الحِدادِ

* * *

فتغنّى — أستغفرُ الله — بل ناحَ نواحاً يذيب قلبَ الجمادِ
باكياً شجوَهُ ترنّ قوافيهِ رنينَ النبالِ في الأكبادِ
ذاك والقولُ ليس يعدو شكاةَ لو جرَتْ أدمعاً جرت بجسادِ
وعتاباً لولا البراءةُ منهُ عاجلاً كان سُبّةَ الآبادِ

* * *

برئتْ مصرُ منه بالحقّ لمّا نشطت من جمودها المتمادي
طرأتْ حالةٌ تيقّظَ فيها لدُعاةِ الهُدَى ضميرُ السوادِ
فاذا حافظٌ وقد بشّ ما في نفسه من جَهامةٍ وارْبدادِ
وبدا للمنى الجلائل فيها أُفُقٌ واسعُ المدَى لارتيادِ
ما تجلّى نبوغُهُ كتجلّيهِ وقد هبّ (مصطفى) للجهادِ
يوم نادى الفتى العظيمُ فلبّى من نبا قبله بصوت المنادي
ووَرى ذلك الشعورُ الذي كا نَ كمِيناً كالنارِ تحت الرمادِ
فتأتّى بعد القنوط الدجوجيّ رجاءٌ للشاعر المجْوَادِ
مَسّ منه السوادَ فانبجست نارٌ ونورٌ من طيّ ذاك السوادِ

* * *

أكبرَ الدهرُ وثبةً وثَبَتْها مصرُ مُفْتَكّةً من الاصفادِ
وثُغاء غدا هزيماً فألقى رُعبَهُ في مرابضِ الآسادِ
ما الذي أخرج الشجاعةَ من حيث طَوَتْها قرونُ الاستبدادِ
وجلا غُرّةَ الصلاحِ فلاحت تزدهي من غياهب الافسادِ
فاذا أمةٌ أبيّةُ ضَيْمٍ ما لها غير حقها من عتادِ
نهضَتْ فجأةً تُنافِحُ في آ نِ عَدُوَّيْن أسرفا في اللّدادِ
أجنبيّاً ألقى المراسيَ حتى تقلع الراسيات في الاطوادِ
وهواناً كأنما طبَعَ الشعبَ عليه تقادمُ الاخلادِ
حَلْبَةٌ يُعْذَرُ المقصّرُ فيها والخواتيمُ رهن تلك المبادي
ليس تغييرُ ما بقومٍ يسيراً كيف ما عوّدوهُ من امادِ؟

غير ان الإيمان كان حليفاً لقلوب الطليعة الانجادِ
فاستعانوا بهِ على ما ابتغوهُ ، غير باغين ، من بعيد المرادِ

* * *

لم يَطُلْ عهدُ مصر بالوثبةِ الأولى ودون الوصول خَرْطُ القتادِ
فتراخى فيها وثيقُ الأواخى ووَهى الجَزْلُ من عُرى الاتحادِ
آيةٌ أخفقتْ فقيَّضَ أخرى أثرٌ من عناية اللهِ بادِ

* * *

فزعت دنشوايُ تحمى حماماً من مُلمِّين كالذئاب الاوادى
فتصدّى للذَّوْد عنهُ جفاةٌ من شيوخٍ بها ومن أولادِ
حادثٌ روَّعَ العميدَ — أيخشاهُ وسلطانُهُ وطيدُ العمادِ ؟
لا ، ولكنَّ عزَّةً أخذتْهُ عن غرورٍ ببأسه واعتدادِ
سَفَهٌ جرَّأ العبيدَ المناكيدَ على معتقيهم الاجوادِ
فخليقٌ بهم أشدُّ قصاصٍ حلَّ بالآبقين والمرَّادِ
ساقها مُثلةً توهّمها خيراً وكانت عليه شرَّ نآدِ
ذاع فى الشعبِ وصفُها ففشتْ آلامها فى القلوبِ والاجسادِ
وكأن السياطَ يحززْن فى أجسلادهِ والحبالَ فى الاجيادِ

* * *

أى عالى الجبين فى الرَّوع قاضى ظالميهم بجأرهِ الهدَّادِ
كان ترجيعُ حافظٍ نوْحَ مو تورٍ فدوّى كالليث بالايعادِ
فى قوافٍ بهنَّ تنطقُ لو أو تيتْ النطقَ ألْسُنُ الاحقادِ
علّمتْ خافضى الجناح لباغٍ كيف شأن الحمامِ والصيَّادِ

* * *

وعد الصابرون بالفوز وعداً حقَّقتْهُ أنباؤهم باطّرادِ

انما الصبر فى النفوس جنينٌ يرهقُ الحاملاتِ قبل الولادِ
كيف يأتى به ارتجالٌ ولم يأ تِ ارتجالٌ يوماً بقولِ مُجادِ
خُلُقٌ عزَّ فى الجماعات مِنْ فَرْ طِ تكاليفهِ وفى الآحادِ
ظالما خان فى النضالِ الجماهـ ـيرَ فألقتْ لغاصبٍ بالقيادِ

* * *

بعد وثبٍ فى إثر وثبٍ عنيفٍ وارتدادٍ فى الشوط غبَّ ارتدادِ
ساورَ الأُمةَ التردُّدُ والتا ثَ عليها فى السير وجهُ الرشادِ
وتبدَّى الاحجامُ فى صورةٍ زلاَّ ءَ جرَّت إقدامَ أهلِ الفسادِ
بالدعايات والسعايات حاموا حولها للسوَّام أو للرُّوادِ
لا تسل يومذاك عن جَلَدِ القا دةِ فى مُلتقَى الخطوبِ الشدادِ
كلما ازدادت الصعابُ أَبَوْا إلاَّ كفاحاً وعزمُهم فى ازديادِ
يبذلون القُوَى وفوقَ القوى غير مبالين انها لنفادِ
والزعيمُ الأبرُّ أطيبهم نفساً عن النفس فى صراع العوادى
يئسَ الشعبُ هل ينجِّيه إلاَّ حَدَثٌ من خوارق المعتادِ
مصطفى مصطفى بحسْبك إنْ يُنْ كَرْ فداءً أن كنت أوَّلَ فادِ
مصطفى مصطفى ليهنئك أن أحييت قوماً بذاك الاستشهادِ
دبَّ فيهم رُوحٌ جديدٌ له ما بعده فى القلوبِ والاخلادِ
تنقضى الحادثاتُ بعدكَ والرُّ وحُ مقيمٌ فيهم على الآبادِ
كاد يومٌ شُيِّعتَ فيه يُريهم لمحةً من جلالِ يومِ المعادِ
صدروا عنه بالتعارف فيما بينهم وهو قوّة الاعدادِ
واستشفُّوا لبأسهم فيه سرّاً كم تحامَى أن يدركوهُ العادى

* * *

هذه مصرٌ الفتيَّةُ هبَّت فى صفوفٍ فَتيَّةٍ للذيادِ
رجلٌ مات مخلفاً منهُ جيلاً رابطَ الجأش غير سهل المقادِ

إن دعاهُ الحفاظ أقبل غلما نٌ سراعٌ من القرى والبوادى
أحدثوا فى البلاد عهدَ لجاجٍ فى تَقاضى حقوقها وعنادِ

* * *

عهدُ بَثٍّ من أنفسٍ تلتظَّى بعدَ طول الخمودِ والاخمادِ
تَخذتْ عبقريةُ الشعرُ فيهِ سُلَّماً للعروج والإصعادِ
أبلغت حافظاً من الحظِّ أوجاً زَاد منه العلياء كل مرادِ
مَن رأى الشاعرَ المفوَّهَ يوماً وحوالَيْهِ أُمة فى احتشادِ
مُوفياً من منصَّةِ القولِ يرنو باتِّئادٍ ولحظهُ فى اتّقادِ
واسع المنكبين منفرج الحق وين يخطو خطاهُ كالمتهادى
باسماً أو مقطّباً عن محيّاً بارز العارضين فوق الهادى
عزّ منه العذار إلا تفاريقَ خفافاً فى الوجنتين بدادِ
ينشد الحفلَ فاتناً كلَّ لُبٍّ ببديع الايماء والانشادِ
وبشعرٍ لا يطرف الجفنُ فيهِ صادرٍ عن حَمِيَّةٍ واعتقادِ
من رأى حافظا نذيراً بشيراً جائلاً صائلاً بغير اتّئادِ
غَرِداً كالهزارِ آناً وآناً حَرِداً كالخِضَمِّ ذى الازبادِ
ينبر النبرةَ العزوفَ فما تسـ ـمع إلاّ أصداؤها فى الوادى
وكأنَّ الاثيرَ يحمل منها كهرباءً تهزُّ كلَّ فؤادِ
فهى عزٌّ للأريحيّ المفادى وهى ذلٌّ للخائس المتفادى
وهى خفقُ اللواءِ يحدوه من إيقـــاع أبطاله إلى المجدِ حادِ
ذاك أن الرُّوحَ المردَّدَ فيها روحُ شعبٍ والصوتَ صوتُ بلادِ

* * *

أيها الراحلُ الذى ملأ العصـ ـر بآثارهِ الرِّغابِ الجيادِ
أعجزتْنى قبل التمام القوافى والقوافى تضنُّ بالإمدادِ

قَدْكَ منها بيان مفخرةٍ واءٍ ذر قصوراً بها عن التعدادِ
بتْ قريرا فإن ذكراك فينا أجْدرُ الذكرياتِ بالاخلادِ

خليل مطران

حافظ

فى رأي مطران

— ١ —

بين الشعراء والنقاد اليوم معركة حادة عنيفة غير حازمة ، تجاوزت الانصاف والفن وعدت على الخلق ، وخرجت من هذه الدائرة السامية دائرة التهذيب والابتكار إلى نوع من المهاترة يضر الشعر والفن ويفسد الصلة بين الادباء جميعاً : فكل فريق سيء الظن بصاحبه يتهمه بالعجز والقصور ، هؤلاء النقاد لا يكادون يعرفون للشعراء كفاية أو جهدا ، ويقولون ليس عندنا شعراء يستطيعون الاضطلاع بما تستلزمه النهضة الادبية المعاصرة ويسدون فراغ هؤلاء الذين أدركهم الموت وكانوا أبراراً سابقين .

وأمّا الشعراء فلا يبالون بهذا كله ، فهؤلاء النقاد جاحدون وهم أعجز عن تقدير الشعر ، وتذوّق جماله ، واستبطان دخائله وأسراره ، وقد خرجوا من ذلك بقاعدة عدّوها أو حسبوها جديدة: هى ألا ينقد الشاعر إلا شاعر .

على أنك إذا نظرت إلى رأى الشعراء بعضهم فى بعض رأيت شراً مستطيراً ، واختلافاً كبيراً ، وسوء ظن يربى على مابين الشعراء والنقاد . فالمسألة فى الحقيقة ليست مسألة شعراء ونقاد وانما هى مسألة طبيعية ، ونتيجة لازمة لاختلاف الأذواق والشخصيات ، ولاختلاف طرائق النظر والتفكير ، ثم هى بعد ذلك مسألة هذه الصلات الاجتماعية والخاصة التى تصل بين الناس جميعاً ، وتعرض روابطهم الى الاستقامة أو الاضطراب . فاذا نحن حمدنا هذه الشخصيات ونزعتها الى الاستقلال فقد يكون حمدنا أكثر إذا وُجِّه هذا الخلاف إلى الشعر وخدمته دون هذا التنابذ والمهاترة .